شقوق الذاكرة

قصص

علي الصادق

شقوق الذاكرة

قصص

الكتاب : شقوق الذاكرة
المؤلف : على الصادق
تصميم الغلاف : محمد مجدي
رقم الإيداع : 2015\19610
الترقيم الدولي : 1-24- 6495-977-978

***

دار الميدان للنشر و التوزيع
جمهورية مصر العربية
هاتف 01224245429 / 0552311408
Website: www.daralmidan.com
E-mail: almidan@daralmidan.com



شقوق الذاكرة

وقصص أخرى

علي الصادق



إهداء

إلى أمي ....

الحكايات أشياء صغيرة مربوطة بطرف ثوبك و الكون كله
ثقب أسود صغير تحت قدمك ...

علي

لا يليق الموت به الآن

تأمل خطوط وجهه البارزة في المرآة التي صنعها بآلاف من حبات الرمل الأبيض، شعره المتشابك، لحيته الطويلة الكثة وقد التصق بها بقايا طعام و لعاب جاف، المبعثرة كـــــفراء قط بري. أخيرا رأى وجهه بعد فترة طويلة من الجفاء بينه و بينه .

كانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بالوحدة منذ فترة طويلة من هروبه إلي ذلك المكان الخالي تماماً، ربما أخبرته دماغه ذات يوم بعيد أنها صحراء، تهرأت ملابسه حتى ما عاد يستر عورته سوى قطعة قماش ممزقة كانت بيضاء في يوم من الأيام! ما كان يحتمل أن يكون عبئًا علي أحد بعد أن أخبره الطبيب أنه مصاب بالسرطان وسيموت بعد شهرين على أفضل تقدير! لم يحتمل أن يرى نفسه وحيدًا على فراش تتأفف منه زوجته حين لا تقوي يده على حمل الملعقة ليسقط الطعام على الأرض، ويسمع أصوات الزائرين يمصون الشفاه.

دائمًا كان يهرب من هذه النقطة في ذهنه، يشعر أنها تحاصره، وهو لا يحب أن يقع فريسة لشدة ذاكرته؛ لأنه حتماً ستكون هناك منطقة ما يصعب فيها المراوغة وبلا شك ستقوده نحو الجنون.

في ذلك اليوم لم يمارس عادته اليومية / البحث عن جذور النباتات الطرية، لم يذهب للحفرة العميقة التي ترك فيها بقايا ملابسه لتجمع الماء أول مرة جاء إلي هناك ، استمر في ملامسة وجهه. مرر أصابعه علي حاجبيه ، وجنتيه بعد أن صارتا كالخبز الجاف. عيناه بارزتان و مخيفتان حولهما نتوء عظمي مرعب. شعر كأنه كائن

خرافي يشبه البشر. تحسس تلك الجلدة الجافة التي تتدلي من خصره، التي ضمرت تقريبا، بدا عضوه كأنه ظهر أفعى له حراشف مخيفة.

تذكر يوم أن جرى بكل بقايا قوته خلف ذلك الأرنب البري، حين أمسك به تبين أنه أنثي! لم يذبحه بالطريقة التي تعلمها عندما كان محاربًا قديمًا، بالرغم من حاجته المخيفة إلى فرائها، قيدها في المكان الذي كان يطلق عليه (بيت)؛ صنعه من فروع شجرة تجثم علي مسافة بعيدة قطعها ذهابًا و إيابًا مئات المرات، و تساءل في نفسه لماذا لم يبنِ عشه تحت تلك الشجرة.. نزل حفرة الماء ، سكب علي جسده، فرك بعض الأعشاب البرية الفواحة على جلده. تهيأ تمامًا ، ضاجعها !!! كانت هذه هي المرة الأولي التي يستخدم فيها ذلك العضو الذي قد نسي وظيفته، كان شعورا غريبا في بادئ الأمر، لكنه صار اعتياديًا جدًا .. كانت تحدثه نفسه ذات يوم أنه ربما إن عاد من رحلة البحث عن الجذور و النباتات البرية قد يجد رائحة طعام أنثوي ، قد يجد المكان مرتبًا و نظيفًا، ضاجعها مرارا حتى جاء اليوم الذي وضعت فيها أرانب كثيرة، أرانب ذات وجه آدمي و جسم أرنبي . شعر برعب حقيقي عندما رأى الأرانب الصغيرة تملأ المكان ، تتقافز و تصدر أصواتًا مختلطة ، أصواتًا شبه بشرية ، كان يخشى أن تكبر و تصيح به (بابا)، شعر برغبة ملحة في الانتحار، لكنه دائمًا يخشى الموت

أو أنه يخشى مرحلة ما قبل الموت مباشرة .

تعلق بممارسة طقوس ما بعد فترة حرمان قلبي، نسي طريقة الصلاة المعتادة، ذهب إلي الشجرة الوحيدة،ربما، في ذاك المكان ، نام تحتها ، تأمل جذعها القديم ، الفروع المتشابكة كلحيته ، تلك الملاءة السوداء الطائرة التي تسمي الليل و النقط المضيئة التي تلتصق عليها ، الصمت ..

تعبد تحت الشجرة كأنه يتعبد تحت كرسي الإله وربما اعتبرها إلهه الخاص الذي تجلى له في عتمة الخوف . كانت ذاكرته خالية تماما قبل هذه النقطة ، حين وجد نفسه قابضًا على رقبة الأرنبة، ظل يضغط .. يضغط حتى ماتت بين يديه، الأرانب الصغيرة تصدر نحيبا يصم الأذن ، أذناه غير معتادتين على الصوت ، توتر .. توتر أكثر ، تسارعت أنفاسه حتى كاد أن يجن ، قبض على أعناقهم جميعًا حتى فارقوا الحياة، ثم جلس يبكي كطفل ماتت أمه فجأة .

نع لهم جميعا قبوراً: واحد كبير بعض الشيء والباقي أصغر قليلاً، كان يزورهم كل يوم و يبكى بخوف، و عندما عاد ذات مرةٍ كانت الأرانب ذات الوجه الآدمي تتقافز مجدداً، تجري فرحًا خلف بعضها، جلس في زاوية من زوايا العش مُعَرى من السقف ، ترسل الشمس أشعتها العمودية فيضع يديه على رأسه ضامّاً قدميه إلى بطنه ، تناوشه الأرانب ، تتقافز علي عاتقيه وتدور حول رأسه مصدرة أصواتًا آدمية أكثر مما يحتملُ !! .

في ذلك اليوم انطلق خارج البيت ، نبش بيديه الرملِ الأصفر صانعا حفرة عميقة تليق بأن تكون قبراً ، تمدد فيها مرخيا الحبل لذاكرته للمرة الأولي ، للمرة الأولي لا يشد الحبل ، ظل يجمع

الرمال و يردم جسمه ببطء، بادئًا بقدميه، واصلاً رقبته النحيفة التي تشبه رقبة الأوزة . هو الآن قادر علي التذكر ، قادر على البكاء كبشر . شعر كأنه حفر بيديه فتحة في جسم الأرض ، أحس بالأرض تنبض حول جسمه ، تذكر طفلته الوحيدة حين دفعها ذلك الطفل الهمجي، وهي تلعب في الشارع ، سقطت على ظهرها بشدة خلعت قلبه من مخبئه، سمع بكاءها يرن في أذنيه ، شعر كأنه لن يحتمل ، بدأ يشد الحبل ، الصوت يعلو مجلجلاً في أذنيه و نبرة ابنته تنادي عليه مشحونة بقدر كبير من النشيج (بابا) ، ازداد توتر الحبل ، للمرة الأولي منذ أن هجر حياته ، تذكر شفاه الطبيب حين اختلى به ليخبره عن مرضه . ربما ذهب لهذه النقطة من الذاكرة حني يخفف من اضطراب الحبل ، ربما خشي من تمزقه ووقوعه في تلك المنطقة المحظورة (ابنته) . لكن عاودته الصورة مجددًا كأنها عرض فيديو يصبح أبطأ شيئًا فشيئًا ، لم يستطع التشبث أكثر ، انفلت الحبل، كانت عيناه مثبتتين على دموع ابنته و أذنه مليئة بنشيج مكتوم ، أحس بدموع تجري على وجنتيه . كان الحبل يجذبه خارج الحفرة ، هب واقفًا فاردًا ذراعيه كتمثال المسيح الفادي و أخذ أول خطوتين نحو العودة .

تسونامي

كأن كل الكائنات ساكتة في مثل هذا المكان الذي لا يتوقف عن الضجيج تقريبا إلا في ساعات الليل؛ حين يكون علي النقيض تماماً؛ حتى الأشجار توقفت بشكل فجائي عن الاحتكاك بأشجار الكافور العتيقة علي ضفتي بحر البقر

على بعد 100 متر تقريباَ: كنت بالقرب من هذا المصرف العجوز،على مسافة ما كان هناك طفلتان وأمهما من أبناء العرب الذين يسكنون في خيام متهرئة، سمعت صوتًا مرعبا يشبه الصفير المصاحب (لشفط) سائل ثقيل نسبيا، انطلقت تجاه بحر البقر، الماء الأسود ينحسر بسرعة مفزعة نحو ثقب واسع جدًا في بطن المصرف، البحر يبتلع كل مائه، ذكرياته المفجعة، آخر النظرات الزائغة للمقتولين علي ضفافه حيث لا يكون هناك (صريخ ابن يومين)... (سخام) المصانع ... صرف المدن و القرى المزروعة علي امتداده.

ترك بعض الفلاحين -بدافع الفضول- فؤوسهم، واندفعوا نحو المصرف.

بلا مقدمات انتفض المارد الأسود يسد الأفق، فيضان من (الرغاوى) المزوجة بالمواد الكيميائية تعتلي لحم الماء الأسود، تنطلق بسرعة رهيبة من الثقب الكبير نحو ضفتيه المتورمتين!ثار البحر والزبد يغلي في عروقه، سريعًا امتلأ عن آخره حتى فاض بما فيه من شكوى، وتخطى جانبيه العاليين، ازداد اتساعًا إلى الضِّعْف تقريبا، جريت بكل ما أوتيت من خوف، والماء الأسود يجري من خلفي بكل ما أوتى من غيظ نحو القرية الساكنة، ابتلع الكثير من

الأراضي، اقتلع خيمات العرب بمن فيها، طاشت الأغنام كالأوراق العائمة على صفحة الماء الهائجة، امتلأ الأفق بصرخات النساء في الحقول؛ والتي ما زالت عالقة بأذني، حتى وأنا عالق أيضًا هنا، لا شيء يوقف الماء الغاضب! اكتست المساحة المتأخرة بالسواد و(الرغاوى) البيضاء العائمة كالسفن الصغيرة.

فكرت في اعتلاء شجرة كبيرة، لكنى ارتعدت حين رأيت أشجار الكافور العملاقة عائمة بجوار آلاف الدجاجات النافقة من بقايا المزارع المبنية على الأراضي الزراعية.

ما الذي أغضب هذا المصرف الهادئ والصامت منذ ولادته؟ منذ أن كان ماؤه كالفضة وسكانه من الأسماك كثيرين؟ ما الذي جرى حتى يغضب كل هذا الغضب؟

جريت ..

جريت عبر الشارع المؤدي للمنازل، ترك الفلاحون أراضيهم ومواشيهم وانطلقوا هاربين بعيدًا عن الطوفان! والذي يسقط يبتلعه السواد!

غطى الماء تقريباَ أكثر من نصف القرية، واتجه الناس نحو النصف الآخر، الماء يطوى الأرض بسرعة رهيبة؛ كأن منْ ورائه محيطًا، حتى الأماكن التي كنت أحسبها مرتفعة في النصَف الغارق لا أجد لها أثراَ بالمرة!

فقط ماء أسود .. صرخات متداخلة .. فوضى كيوم الحشر! الشوارع مكتظة بأعداد هائلة من الهاربين من بيوتهم الطينية، كنت أول المتجهين لاعتلاء مئذنة المسجد الذي يتوسط القرية، تبعني عدد كبير من الناس، اكتظت المئذنة بأعداد الهاربين، حاصر الماء المسجد، وبدأ مستوى الماء يزداد أكثر وأكثر، اهتزت المئذنة بشدة والناس يتساقطون مثل البلح من النخل، المزيد و المزيد ي ت س ا ق ط و ن ..

يتساقطون

صرت وحيدًا على أعلى منطقة في المئذنة يمكن الاستمساك بها، احتضنت الهلال الأخضر ناظرًا إلى القرية التي قد طمست معالمها تمامًا... فقط : ماء أسود!

شعرت بدوار شديد .. السماء قريبة جدًا .. جثث الناس والأشجار العائمة والمرأتان(العرباويتان) بزيهما المميز... ولا شيء في الأفق سوى بعض الأشباح.

آخر أعواد القمح

نظر إلى أصابعه، غير قادر على فردها حتى آخرها. جلد يديه رقيق جدًا حتى أن عروقه كانت ناتئة بزرقتها الداكنة، الجلد الناشف كقشر السمك عند المفاصل، أظفاره الملتصقة بجلد الأصابع...

تذكر ذلك الصباح البعيد /بعيد للغاية: أشجار (السنط) بجوار بحر البقر. الآن -هنا- عود من القمح أخطأه المنجل، كان ينتظر جزة واحدة من شفرة الفلاح ليلقى حتفه بين أقرانه الآتين إلى الدنيا في نفس اليوم. نظر إلي أكوام القمح في الأعلى.

كفاك نوم في ظل شجرة (السنط)!

الدنيا قيظ ومياه بحر البقر تخرج صهدًا كاويًا، الأرض ساخنة تحرق جلد الأقدام؛ لا نسمة هواء تحرك صمت المشهد.

جلس الرجل يعصر في ذاكرته يحاول شد المشهد كاملًا أمام عينيه. اهتز قلبه بشدة. تهتز معه الصورة وترشح من بين أصابع يديه منزوية بعيدًا في زاوية معزولة من زوايا الذاكرة المهملة منذ زمان بعيد؛ شعر برغبة شديدة في اكتشاف تلك الزوايا المفقودة عند آخر الحدود، تناوشه الذاكرة، تقترب فتملأ المشهد فيرتعش قلبه، ويبدأ خيط الذكرى في الظهور كخيط أبيض بين خيوط سُودٍ، ثم تعود فتراوغ مرة أخرى...

كان يتحاشى النظر إلى عينيه في المشهد؛ لأنه ما كان يظن أنه سيحتاج تلك النظرة - يومًا ما - لدعم قدرته على التذكر، ربما لو

كان يظن أنه سيقع في هذا المأزق لادخر نظرة واحدة في جهة وجهه القديم الآن...

العلامات السوداء على عظام الرجل أعلى مفصل القدم ، كأنها حرق قديم على شكل أصابع بشرية لكنّها أكبر قليلًا.

قلبه يرتجف، وروحه تحشرج في حلقه... جذبة قوية جدًا سحبته وهو نائم على الجسر نحو ماء بحر البقر، استمسكت أصابعه بالأرض، قبض بشدة على حبات الطين الصغيرة الناشفة، عينه تنظر إلى أكوام القمح في الأعلى، و جسمه مفرود بين الماء و بين جسر البحر، استمسك أكثر ببعض الفروع الصغيرة التي تنمو بالقرب من جذع شجرة السنط، مازالت اليد تجذبه بشدة أكثر نحو الماء... اشتدت القبضة أكثر فأكثر -وهو يعاني- نحو الأعلى؛ استعرت في رأسه الفكرة، طرح فكرته الأولى على أقصى امتدادها، كان لابد من تغيير في المشهد؛ سيحكي هذه القصة يومًا؛ لابد من التشبث بالفرصة ؛ قد لا تتاح لك فرص كثيرة لمعرفة ما يمكنك أن تتذكره في المستقبل حين تصبح الذاكرة همًا ثقيلًا على رأسك، ويكون التذكر مجهودًا خرافيا أصعب كثيراً من ألم المفاصل الذي يكرهه...

هنا بالتحديد نظر إلى عين الذكرى من الزاوية التي كان يرى نفسه فيها منسلخًا من جسده المفرود كأنه شخصان: أحدهما متشبث بصغار (السنط)، و الآخر يراقب المشهد و يخزنه بعناية ليوم موعود.

اهتز عود القمح الذي نسيه منجل الفلاح، فانتفض واقفًا على جسر البحر منتشلاً طبعة يد الجنية علي رجله أعلى القدم قليلاً.

شقوق الذاكرة

مار أمام الباب الخلفي الكبير، الزير الوردي الذي تتفصد منه قطرات الماء لتتجمع في إناء نحاسي صغير، ألقيت نظرة على الحجرة المجاورة، غرفة اللبن التي تفر رائحتها إلي أنفي مباشرة،

أتجاوز كل روائحها؛ تلك المنقوشة على الحوائط، الجبن، القشدة، اللبن الرائب.

وصلت باب غرفة نومه.

لا تقل لي كيف عرفت غرفة نومه؛ ببساطة لأنه جدي، ثم إن الدُّورَ الطينيةَ في بلدنا كالتوائم المتماثلة بناها نفس الشخص؛ ذلك الرجل المُسجى على سريره الحديدي.

عندما وقفت أمام الباب وفي عكس اتجاه الضوء كنت أعلم أني سأكون مبهمًا، لكنَّ قلّة الضوء الزاحف إلى الحجرة بلونها الطيني نبه الوجه القديم الراقد منذ أيام طويلة.

- ازيك يا جدي.

أطلق حاجبيه الرماديين بابتسامته القديمة كأنه عرفني.

- عندما كنت أضعك في حجري ما كان أحد يراك.

و الحمد لله علي كل حال .

قالها وانكسرت نظرته على مخدته المتهرئة.

اعتدت على المرض، صرنا وليفين حتى أنه إذا فكر في الانقلاع، استوحش، فيعود قبل أن تأكله الغربة،ليجدني فاتحا ذراعي، فيتخللني من كل ثقوب الروح فأربّت على كتفه: "كيف الحال الآن؟".

ربما أظل هكذا كثيراً بين الموت والحياة، أنتظر -بأمل- تلك الصَدَفَة التي تنتظر الموجة التي ألقتها على الشاطئ قبل أربعة ملايين عام ، ربما كان الموت يجلس القرفصاء مسمراً عينيه في عيني، وأرى وجوه الأهل والأصدقاء تتقافز من حولي ويجتمعون بقلبي يتسامرون بقصة الهلالي والزير سالم، يضحكون حتى أبكي فأنتظر انغراس المخالب بقلبي لينطفئ.

ليتني ذهبت مبكرَا!

خرجت الكلمات ثقيلة جدًا على لسانه، حاملة كل آلام الماضي والحاضر، تحدّثَ كأنه لم يتحدث منذ سنين.

هاأنذا أتلوى على هذا السرير، يكاد بطني يتفجر، أصرخ: "عايز أعمل حمام يا رب، يا رب عايز أ ... خ..". وهم خارج الدار يلعبون (الضُمَنَة)، أسمعهم يقولون "هو في غيبوبة، هو ليس دارياً بشيء". وعندما يسألهم أحد الأقارب يقولون "إيييييه ربنا يريحه..."آآآآه يا ولاد الكلب؛ كم تمزق أحشائي هذه الكلمة!

أنت يا ولدى لا تعرف ألم العجائز!

عندما كان ينتفخ بطني، ويصير كالحجر، أتلوى كالثعبان ولا تنفعِ الحقنة الشرجية، أصرخ،فيأتي أحدهم على مضض ويضع سبابته في .... و يسحب .... أود فقط أن ....

- لا تبك يا جدي و الله تقطع قلبي .

- أبكي لأنك كنت تلعب معهم ....

هل تعلم يا ولدى لماذا يسمون الرجل العجوز بركة الدار؟

لأنه برك علي أربعته كالجمل، عندما كنّا صغاراً، كنا نستند إلى قدم واحدة لنثب واقفين، ولما كبرنا قليلًا صرنا نستعين بيدينا، ولما شخنا بركنا على أيدينا وأرجلنا، وصرنا بركة الدار، لا نتحرك من أول شروق الشمس حتى المغرب إلا عندما تأتى إحداهن بيدها (قِنْو المكنسة) وتقول لك متأففة :

تحرك (شوية) يا بركة حتى نكنس تحتك .

أتعرف -يا ولدى- مثل الرجل العجوز الذي مصّتْهُ فروجَ النساء كمثل الجمل الذي ظل ثلاثين عامًا يحمل الحطب على ظَهره؛ ليأكل أهل الدار من عرقه لكنهم عندما كبر ذبحوه.

ليرحمك الله يا جدي ..

من أعاد هؤلاء؟

في غير زمن المعجزات: ترفع يديك الممصوصتين إلى السماء؛ علَّ الله ينزل عليك (بطاطين ياباني)؛ لتحمى قدميك المقفعتين من حرارة الشموس أو صقيع الأرصفة أو لعله يمنعك من لَمّ أعقاب السجائر....

تنفض يديك؟

تجول أمك بعصاها المعقوفة في خاطرك ، تسعل بصوت عال في ضلمة رأسك ، وأنت تتسكع في شوارع (الشرم) العارية...

ولجت كل الفنادق، ملأت(استمارات) لا تعرف عددها، ويظل الجواب

"المطبخ".

وحدك والمسح والكنس والغسيل... لم تعد تعرف إلا الصابون السائل والأطباق والسيراميك المتسخ بأقدام السياح العاريين.

مُرتَّبَكَ لا يكفي لشراء المياه المعدنية!

تصرخ.....

يا نااااااااااااااااس، بكالوريوس وأشتغل في المطبخ ؟!

تسأل نفسك وأنت تغسل الأطباق النظيفة: من أخرج سيزيف من غياهب الزمن السحيق؛ لينزل الصخرة من على رأسه، ويضعها على رأسك أنت .

من أعاد ليجركس[1]؛ لتتعرى على يديه النساء، وتتمايل أمامك أجسادهن المليئة بالنمش، يستفزك اللحم الأحمر، تقيء، يأتيك المشرف (يشخط وينتر)، يسبك ويلعن أسلاف أهلك! ترى في طلعته مصائب الزمن الآتي، تسبه أيضًا -لكن في سرك، ثم ترى في سحنته بقايا عز فائت، فتغفر له صوته العالي وسبابه الذي لا ينقطع.

كم تكره هذا (اليونيفورم)! يذكرك بالبالطو الأبيض؛ فلا تتمالك نفسك وأنت تُغالب العبرات في عينيك فتبكي.

تسير ....

يطالعك سيزيف وليجركس في كل العيون.

من أعاد هؤلاء؟

إن من أعادهم هو الذي قذف بك إلى هنا.

تتحسس جبهتك العريضة بعد أن فارقتها علامة الصلاة؛ لم يبق منها إلا كبقايا الظل عند المغيب.

تتذكر طبعة شفتي أمك الحانية، وهي توقظك لصلاة الفجر.

---

[1] ليجركس : مربى أسبرطي كان يعرى النساء كي ترقص أمام الرجال كما ولدتهن أمهاتهن .

عرفت عُبّادَ السياح واليورو والدولار.

تظل تسأل نفسك: هل حان وقت استجداء اللقم؟

يأخذك الحنين إلى جسر الترعة، توتتكم العالية، صرير الساقية القديمة، احتساء الشاي مع أمك العجوز (التي لن تعود ولن تزعجك صوت رشفاتها)، تعود لترتمي في حجرها باكيا، كما كنت تفعل وأنت صغير، تحتويك، تعود طفلًا عابثًا تجرى حول حقول الحنطة ويتصيد الزنابير.

تشعر بِيَدٍ تهزك من الخلف:" اشتغل كويس يا بني آدم "

تعاود طأطأة رأسك من جديد، ثم تمرر فوطة المسح على السيراميك، ولا يزال الجوع يستبد بأحشائك.

طريق مشجر ينتصف الذاكرة

حسين خولي في(الوسية)؛ أرض مراد بيه (هو أصلًا لم يكن بيه ولا تيه، كان (سايس) الخواجة " ينى "، ولما قامت الثورة، استولى على كل الأرض/ أكثر من ألف فدان، وصار صاحب ملك، واستأجر الناس، ولما كان قانون عبد الناصر كتب مراد بيه حجج الأرض بأسماء الفلاحين الذين يعملون لديه، واحتفظ هو بأصول الحجج، ولم تزل الأرض تحت تصرفهم حتى الآن .

كنت صغيرة لم أبلغ الحيض -بعدُ- بحوالي قيراطين من ضفيرتي عندما أسلمتني أمي لحسين؛كي أعمل معهم في(الوسية)، قالت له:

خد بالك منها عشان أجوزهالك .

كأنّ أمي قد ألقت (بصبوص) نار علي كومة قش في قلبي في نفس اللحظة التي اشتعلت فيها النار في قلب حسين، وانطلقتُ مع الرجل الذي سيتزوجني كما قالت أمي.

ما كنت أغيب عن عينه إلا إذا أرسلني في طلب الغداء، ألمح -إذا عدت- نظراته من بعيد تترقب الطريق، وعنقه الطويل يستدير كطائر كبير، وحين أقبل عليه أرى الدماء (تتبجس) من وجهه الأبيض الذي اكتسى بنحاسي شمسي يجعل منه رجلاً تبدو عليه صلابة الأجداد.

كنت مدللته حتى غار منى البنات، صرن يتغامزن ويكررن كلمات حسين (ارتاحي أنت ف الضل يا خضرة / يخاف عليها من سواد

الشمس أما نحن فلا مشكلة أن تأكل الشمس أكبادنا).

طالت ضفيرتاي القيراطين، وارتفع الثوب من على الصدر بمقدار خوخة،كانت خوختاي تؤرقان عيني حسين، فيشيح بناظريه عنهما كلما ضبطتهما تحملقان فيهما.

جاء حسين كي يحصل على جائزته من تنفيذه لوصية أمي؛ كأنه يقول لها "لقد راعيتها في الحقل كما طلبتي،نفذي وعدك إذن".

رفض إخوتي بشدة، فازداد اشتعال النار في قلبي، وجاء حسين ثانية وثالثة وعاشرة ورفض إخوتي.

كبرت الخوختان وصارتا تفاحتين وكلما ازداد عناد إخوتي، ازداد عشق حسين تأجّجًا في قلبي.

قلت له : يا حسين، خذ حلقي، وبعه، وهيا لنهرب إلى أي بلد.

اتفقنا علي الهرب .

لم نهرب؛ منعه أصدقاؤه، وأقنعوه بالزواج من أخرى، وأن يعجل بالزواج حتى ينسى...، وقد كان.

لم يمكث معها سوى ليلتين، ومن بعدها صار يُدْمنُ التلصّص؛ كان يجلس على عرف التوتة المائلة على جسر الترعة. عندما كان يراني في الطريق أحمل فوق رأسي جرة الماء أو فطور (الأنفار)، تتورد وجنتاه وتصيران كالرمان، ويضع عينيه في التراب كي لا يراني.

كم كنت أشتاق النظر في عينيه (البراويتين)، كانت له نظرة تشبه إبرة التريكو؛ معقوفة من الأمام، حين تنغرز في اللحم لا تخرج إلا بالدم.

ذات صباح كنت أغسل الأواني في الترعة ولمحته يتلصص. لمحت نظرته من بين أوراق التوت، فرفعت جلبابي إلى ما فوق الركبة، ثم سمعت صوت انفجار في الماء (طش ش ش ش)، ورأيته أمامي، ضحكتُ، فاحمر وجهه، وهرول في الماء حتى وصل البر الثانيَ، فجعل أظافره تغوص في الطين كأنه ينهش في لحم الترعة حتى خرج.

في نفس الليلة تقدم لي عريس، وافق إخوتي، ودعوا الناس لقراءة الفاتحة، اجتمعوا في الدار؛ حينها: اشتعلت رأسي ولم أتصور نفسي في حضن رجل غير حسين؛ حسين الذي تعرفه أرض الصوالح ، كلها تعرف رائحة حسين، عرق حسين الذي رواها به عندما عز ماء النيل.

- الله يمسيك بالخير يا حاجة آمنة!

قبل أن يكمل انفجرت رائحة حسين في أنفي، وخرجت ولم أدر ماذا قلت،

انفض الناس: كلٌ يتحسس لسانه في صمت؛ كأن ما قلته قد أمسك ألسنتهم.

****

هجر حسين زوجته، وهام على وجهه يتحسس من الدنيا رائحتي، ولم يكن يدري شيئًا عن مولوده الصغير الذي ربما لم يكن يعرف اسمه، وكانت زوجته تبكي ليل نهار؛ فلم يكن حسين يعمل في ذلك الوقت، ولم تكن المرأة تجد قوتًا يدفع الدم لوليدها الذي يصرخ جوعًا.

كنت أسمع صراخه كل ليلة؛ فينتفض قلبي، ويُهَيَّأ لي أن حسين هو الذي يصرخ، كم وددت أن أذهب إليه، وأضمه بين ضلوعي، وأشم فيه رائحة أبيه الذي غاب.

وفي ليلة شتوية باردة استيقظت آذان الناس على صوت صراخ رهيب، استيقظت البلدة في وقت ربما لم يستيقظ أحد فيه من قبل، وربما لم يقلق أحد فيه ذات مرة؛ فمرارة العمل في الحقول من الفجر حتى مغيب الشمس لا تدع أحدًا إلا وقد أرخى عليه ستر النوم العميق.

ألقيت الشال على رأسي وكتفيّ، خرجت من الدار،بيدي اللمبة (أم شعلان) التي أطفأتها الرياح العاوية في ليل كسف قمره، وابتلعت الظلمة نجومه الحزينة.

شعرت بخفة وزني،وكأنني قشة في مهب الريح والبرودة تيبس أطرافي.

صرخت هنيّة (زوجة حسين)بكل عزمها، صارت تمزّق شعرها؛ ليتساقط على ما تبقى من مياه الأمطار البنية التي تتوسط الطريق.

انخلع قلبي خوفًا عليه.

شعرت بالدفء تلف يداه أطراف المكان، أدركت أن الناس قد خرجوا من دورهم، كلٌّ يمسح عن عينيه أثر النعاس، وتجمعوا في ساعة لم تجمعهم قبل ذلك، دخل الشيخ عفيفي دار (هنية)وخرج في يده (قماط) طفل حسين .

قامت (هنية)كقطة وحشية، والتقطت (القماط) من يد الشيخ عفيفي، وانكفأت عليه بصدرها، ولم تُجْدِ محاولاتُ الرجال أو النساء لانتزاعه من بين يديها نفعًا.

- استهدي بالله يا بنتي!

خرجت هذه الكلمات من فم الشيخ عفيفي، ثم خرجت معها صرخات وتأوهات (هنية) التي كانت تهز كل

جنبات القرية، ولم تستسلم لتوسلات الشيخ عفيفي.

- استهدي بالله يا (هنية).

كلما تحركت شفتا الشيخ بهذه الكلمات، ازدادت قبضة (هنية)إحكامًا على(قماط) صغيرها.

صمتت (هنية)، ثم شرع الناس في الانصراف واحدًا واحدًا.

بدأ النهار يفتح عينيه ولا تزال (هنية)منكفئة على(قماط)ـها.

تسرى في جسدي رعشة كلما سمعت همهمات (هنية) تسير خلفي في الطريق، تحمل بين يديها (قماط) ولدها، كانت تجوب -حافية- شوارعَ الصوالح، تجلس في ظل شجرة كافور، وتخرج نهدها لترضع صغيرها، كنت تسمع مصمصة شفاه المارين.

لا حول ولا قوة إلا بالله.. تجننت (هنية)!

مرت الأيام والشهور، وهي لم تزل تقبض على(قماط)ـها، حتى كنت ترى الدود الصغير يتساقط من يديها، وتسمع صوت صلصلة العظام الصغيرة.

كعادتها، أصابع الشيخ عفيفي تجلب الخير، دقاته الهادئة على بابنا في ذلك اليوم تتلاحق مع دقات قلبي، حتى كدت لا أعرف الفرق بين تلك التي على الباب والأخرى التي في قلبي. ارتسم أمام عيني حسين بكامل هيئته، ثوبه اللبني، يديه، عينيه الساكتتين منذ زمن.

رقص قلبي وأنا خلف الباب الذي يفصل دارنا إلي صالتين.

- الله يمسيكي بالخير يا حاجة آمنة ...

- الله يمسيك بالخير ياسيدنا ...

ولم أدر شيئا بعدها سوى " الفاتحة " ....

****

المطر يدق أبواب القرية والنساء تهرولن، يلملمن صغارهن الفرحين بالمطر الذين يغنون على نقر حبات الماء المتناثرة فوق الطريق:

يا مطرة روخى روخى ....

يا مطرة روخى روخى .....

يا مطرة زيدى زيدى و أنا فاتحلك ايدى ..

يتقافزون في الهواء؛ كأنهم يتسابقون لاقتناص القطرة من أعلى نقطة قبل سقوطها (موتها) على الأرض؛لعلهم يبثون فيها آخر دبيب للروح.

عانق الماء حبات التراب، ورائحة الطين تنتشر في قلب القرية و قلبي، أسير خلف أنفي كأن الرائحة تتبعثر من مكان ما، مكان قد يكون مصدر الرائحة كأنَّ المطر يسقط عليه ليفوح كبخور أذكته النار، لكن -هذه المرة- الرائحة تفوح بفعل الماء، الرجال يسحبون البهائم مسرعين إلى الدور، وأنا أسير عكس الاتجاه نحو الهاتف الأنفي الذي دعاني.

الأرض صارت حبلى بالمياه، والشجر صار أكثر اخضرارًا وسعف النخيل يصطك كأنه يصفق للتناغم الكوني، أو كأنه يحيي الذاهب إليه حين هرب الجميع، تتزايد الرائحة وتقترب أكثر فأكثر..

- وأين سأجدك ؟

- تحت شجرة الكافور على جسر بحر البقر ...

قالها وهو يحمل فأسه مستديراً بنصف رأسٍ، عيناه ببقية من نومهما تضحكان لي.

حملت صرة الطعام .. الطماطم .. الفلفل الأخضر .. الجبن القديم .. الفجل و الجرجير.. هل نسيت شيئًا يا خضرة ؟ هل نسيت شيئًا يا خضرة؟

دبت قدماي على طريق (الوسية) تلك الأرض التي دبت عليها أيضا قدما محمد عبد الوهاب في (الوردة البيضا)؛ هل تعرف هذا الفيلم ؟

لا يهم .

(هنية)!!!!

هل هذه (هنية)؟

(هنية)تحت شجرة الكافور، تنهمر عليها قطرات المطر، وهي منكفئة على شيء في حجرها تحميه من الماء. بالتأكيد هي (هنية)،وهذا طرف (قماط) ابنها، لكنه يبدو باهتًا عن ذي قبل، كلما سقطت عليه قطرة زها، وانتشرت الرائحة أكثر، توالت القطرات، وهي غير قادرة على منعها من التسلل إلى القماش وما

به من بقايا عظام، كأن كل قطرة تعرف طريقها المرسوم لموضع ما.

انتشرت الرائحة في كل شيء، حتى تغلغلت في كل تفاصيل المكان. الصمت ولا شيء آخر حتى ما كنت تسمع نشيج (هنية)المعتاد ولا خشخشة صدرها المصاب بالربو من أثر النوم على جسور الترع والأراضي الزراعية،وهي تدور بـ(القماط)في كل مكان، ثم حين تدمى قدماها، وتتفتح الفقاعات التي تكسو أسفل قدميها لتنز دماً وماءَ مصفراَ، تجلس على صخرة كبيرة وسط الحقول، تخرج نهدها تلقمه (للقماط)، تغنى مبتسمة لصغيرها،أحياناً كنت تسمع صوت ضحكاتها يعلو،فيَخيل إلي كأنه ربما يبادلها الابتسام.

رأس مدور يشبه رأس (العنز)* يخرج من تحت إبط (هنية)، دار الرأس دورتين ثم بدأ العنق الكبير يخرج و يدور هو الآخر.. عنق طويل و جميل له ريش بلون الحليب، بدأ الطائر يتسلل من (القماط) ومن تحت إبطها حتى فرد جناحيه العملاقين، وخفق خفقتين فوق رأسها وانطلق، دار حولها، ثم حول الشجرة، ظل يكبر، ويكبر، ثم فرد جناحيه حتى ملأ كل ركن في الأفق أمامي، فصرت لا أرى غيره،أشم رائحته بقوة، فتتناثر الذكريات في قلبي مثل كوب من زجاج سقط فجأة على الأرض فأرى حسين، أراه بشحمه ولحمه يدق بقدميه عجين الطين، أسمعه يغني، فيضيء صوته شمعة في سواد قلبي المحترق من حزني عليه .

الطائر يدور.. يدور، يدوى صوت جناحيه العملاقين الخفاقين في المكان الخالي والصامت تماماً كميت لتوه، ثم ما لبث أن ارتفع في

السماء أكثر .. أكثر ... أكثر، وانحسرت معه الرائحة أكثر.. أكثر .. أكثر ....، فانزوت معه صورة حسين في مكان ما من قلبي ساحباً دثاره الأسود، ونام حيث أكثر مكان أماناً في الوجود.

- العنز ... اسم يطلقه الريفيون على نوع من الطيور المهاجرة كالأوز العراقي وهو طائر كبير جدا .

ربما كانت هناك

الشوارع خالية إلا منك وحدك، صوت وقع أقدامك على الأسفلت ،ونباح كلاب والغة يرتد من أقصى الأفق..

يبتلعك الظلام و الطريق شيئًا فشيئًا...

تراوغك الذكرى، تتناوشك صورة أبيك ودموعه الطفلة، تتوارى بين خصلات لحيته البيضاء، تتردد في أذنيك كلمات أمك المتهدجةِ بعد أن مات أبوك مكلومًا "سافر يا بني".

سافرت..

رجعت..

لم يعد يتبقى من الليل إلا حشاشة نازع .

يحتبس البول بداخلك، تقاوم سائرًا في الشارع الصموت.

تطرق أبواب المساجد...

لا شيء .

تسير مقاوما ....

في غبش الفجر تسقط أستار الضباب عن العمارات المرشوقة على جانبي الشارع؛ لقد ارتفعت كثيرًا! تبدو كأشباح تناطح بعضها، إلا أنها ازدادت اتساخًا وكآبة.

لم تغير منك الغربة شيئاً غير بصمة الزمن على الوجه و شعر السوالف .

تتنسم هواء الفجر الوليد، يمتد من أنفك إلى كل جزء من جسدك الممصوص، تسري رعشة حميمة بأوصالك، تصافحك الأنفاس الدافئة ورائحة الليل والحب هاربة من بين خصاص النوافذ المغلقة..

ربما كانت -هي- أيضا هناك ...

ربما ؟؟!!

يراوغك الطريق ...

قطرات من الماء الدافئ تجري على فخذيك منسكبة نحو وجه الأرض، ولا شيء سوى صوت الكلاب الوالغة يحلق من بعيد.

جدتي خضرة

ماتت اليوم جدتي (خضرة) بعد أن نشفت على عودها، ماتت في دمنهور، وينبغي أن نذهب للدفن وإنهاء لوازم العزاء، كما أن الدنيا نار وأنا -كالفرخ التسمين- لا أطيق الحر.

قالوا:إنها أسلمت الروح بوداعة قائلة "يا حنون".

ماتت بعد أحد عشر عامًا من موت جدي، ولا أدرى كيف كانت تطيق ذلك! أقصد كيف استطاعت أن تعيش أحد عشرة سنة دون رجل كجدي؟ ذلك الرجل الذي وثب أمامي في عز الحلم كأنه نخلة نبتت فجأة من الأرض وقال لي:"اكتب"

قلت : ما أنا بكاتب.

قال : اكتب .

قلت : ما أنا بكاتب .

قال : اكتب، وسأملي عليك، وأفتح ما بيني و بينك.

قلت : إذن، أكتب يا جدّ.

قال : ماتت خضرة دون أن تمرض، ماتت فجأة وقال الناس أن (الجنية) هي التي قتلتها؛ لأن تلك المرأة -التي جاءت إليها يوم حفر الترعة، وطلبت منها رغيفًا طريًا- قالت إنها شيخة من (الرفاعية)، ولكنكم لم تصدقوها ولم تدركوا أن الرفاعي لا يكذب، فانزوت بزيها الأسود خارج الدار وبكت كثيراً، ثم انصرفت،

ومازلتم تسمعون نشيجها؛ ألم تستيقظوا من نومكم ذات مرة على صوت نحيب وبكاء عجائز؟

ألم ينكسر قلبكم ؤأنتم تقولون لعجوز متهالكة "الله يسهل لك"؟

ثم بعدها - بثلاثة أيام - ماتت خضرة.

حدث أم لا؟

- لا، يا جد!

- أنت تكذب.

- أنا لا أكذب عليك أبدًا يا جدي؛جدتي ماتت عند ابنتها (خالتي)في مديرية التحرير، ماتت علي سريرها.

- لا، أنت تكذب؛ ماتت خضرة هنا على هذا السرير، ماتت منذ أحد عشر عامًا وثلاثة أيام.

- لا والله يا جد، ماتت جدتي في قرية (العشر تلاف)،في مديرية التحرير، حاصرها المرض الشين، كانت عظامها تتكسر مثل بقايا الخبز، و لم تتحرك من مكانها لسبعة أشهر، و كانت تبول مكانها حتى انتشر الدود في مرتبتها، وفي ساقيها المهزومتين، ولم تكن لتقدر أن تتحرك لترد عن نفسها هجوم الدود ثم ....

- كفى ...... كفى.

- لا أستطيع أن أتخيل أن تلك المرأة -التي كانت (كما كانوا يروون) بيضاء كالشمعة، التي أسقطتك من فوق التوتة وهي تغسل أطباقها في الترعة- تتقزم، تصير كقطعة خبز قديمة أو كرغيف (ملدن)، تتكسر عظامها إذا ما أقعدوها أو أراحوها إلى ظهرها، كنت تسمع عظامها تطقطق تق .... تق .... تق .

بعيني رأيتها ذات مرة والأطفال يلعبون بها، كانوا يكسرون في أصابع يديها ويضحكون، قلت لها بعد أن طردت العيال: يا جدتي ماذا تريدين؟

قالت : أريد أن أموت .

تـوحـد

سوف أنظر إليك / معلقًا / كل يوم في المساء، سأدنو منك، ربما يتساقط منى الدمع، وربما أمر من أمامك خارجًا لأجلس في المقهى، أو أشاهد مباراة كرة للأهلي، أو أقرأ رواية الغريب.

وربما أنسى كل هذا، وأنسى أيضًا أنك قد ترحل ذات يوم.

حزين لأنك لم تكن تصلي بانتظام، ولم تدخل المسجد إلا أيام الجمع، لكن يحزنني أيضًا أنك لم تقرأ ماركيز وبورخيس ويحيى حقي..

تضحك..

هل لأنك لا تعرفهم؟ هم أيضًا لا يعرفونك، لكنني واثق أنهم لو كانوا عرفوك، لوقعوا راضين تحتك يرتشفون حكايات تنهمر من بين أصابع قدميك.

قد تجيء ذات ليلة مخترقًا كل الحواجز والبوابات الحديدية، منتشرا ومتسعًا كالسماء،تناديني، فيهتز الكون من رجع الصدى، وألمحك عند آخر تخوم العين، تهرول من بعيد، تشمر ساقيك، وتقبض على فأسك القديمة،تعانقني، فأنتفض كحمامة فاجأها قوس قزح.

- تغيرت الدنيا يا بني؛ قد كنت تشكو إلي مضايقات العيال وضجيج إخوتك الصغار. الآن أشكو إليك الغبار المنهال على رأسي!

أهكذا أظل رهين البرواز و الجدران، أنادى، يُبح صوتي، ولا تسمع لي أذن؛ كأنكم تخرجون لي ألسنتكم! تخترق وجهي أصابعكم، لماذا تشيرون إلي هكذا؟ يؤرقني ذلك الشريط (السّتَان) الأسودُ هنا في الركن، يا بنى هذا فأل سيئ!

يدق الباب..

تنسلخ صاعدًا لمكانك، وأنسكب أنا إلى الحياة.

لكني سأنتظرك، عد؛ فلا الأرض جميعًا قبضتك، ولا السماوات مطويات بيمينك، ولا الناس حافين من حول القبر، تجَلَّ الآن ماشيًا.. راكباً.. المهم أن تجيء. سأمزق هذه الصورة وأقذفك على أعتاب الله باكيًا:

"رب أرني كيف تحيي الموتى"

بدال

نهض من فراشه ملقيا نظرة على وجه زوجته النائمة ببقية من ضحكات عينيها الملقاة على الوسادة منذ ليلة أمس . تحرك بخفة نحو الباب الذي يرشح منه قليل من الضوء (الفجري) الخافت القادم من نافذة البيت الذي ينخفض عن الطريق بمقدار متر تقريبا . ألقى نظرة على ابنتيه النائمتين على كنبتين ملتصقتين بجوار الباب .

فك السلسلة الحديدية التي تربط دراجته القديمة بشجرة (الكازورينا) الواقفة أمام البيت ، انطلق في (غبش) الصبح مستنشقا أول أنفاس الكون. نظر ناحية الشرق باحثا عن أول خيوط للشمس ، سمع صوت بوق قطار المدينة المتجه نحو العاصمة البعيدة حيث تأتي نساء يمشين بشعورهن و معهن نقود غير نقودنا أو كما قال له أبوه منذ زمان بعيد ، ظل يفكر في أبيه كثيرا طوال ضغطه على بدال دراجته ، راحت عيناه بعيدا حين كان يحمله على كتفه و هو سائر إلى المركز ، شم رائحة عمامته ، استنشقها أكثر .. أكثر ، وصل المدينة بعد أن ملأت الشمس الدنيا .

انكفأ على أكوام القمامة التي ألقتها سيارات البلدية توا .

هؤلاء الأغنياء يلقون بأشياء لا يعرفون قيمتها .

بحث بين النفايات عن الأقلام ، الزجاجات البلاستيكية ، الورق ، المعادن و الأكثر أهمية من ذلك كله هي الأشياء التي تُلقى عن طريق الخطأ .

فَصَل الأشياء بخفة معتادة كل في جواله المخصص له ، كما لم ينس أن يحتفظ لنفسه بأشياء أخرى في كيس بلاستيكي : ساعة قديمة ، مقص يحتاج للسن ، سوار من الذهب المزيف لابنته الصغرى ، حذاء به قطع صغير من الأسفل .

ربط كل الأجولة معا على الدراجة و انطلق إلى السوق . باعها جميعا مقابل سبع جنيهات و نصف . اشترى خبزا و طعمية و بعض المخلل . على ناصية شارع جانبي ، رأى عجوزا تبيع الخس ، ترجل من على دراجته ، ابتاع منها ثلاث خسات . هم إلي مغادرة المدينة سريعا قبل أن تزدحم .

وصل البيت . ربط الدراجة بالسلسلة الحديدية فأحدثت صّليلا تزامن مع ضحكات الصغيرتين ، بادرتاه إلي الباب ، أمسكتا بالكيس الذي في يده ، جلس على الأرض مسندا ظهره إلي الكنبة القديمة و ظل يفكر في الولد ، بالتأكيد سيساعدني في تجميع أكبر قدر من الأغراض ، ربما سيحصل على خمس عشرة جنيها كاملة تكفيه لتحقيق أهداف عديدة ، ربما سيساعده في أن يقود الدراجة حين يشيخ و لا تقوى ركبتاه على الضغط على بدال الدراجة .

العمل

- ما الأمر يا .. ؟ وما هذا الشيء؟

- يقولون إنه حسين!

- حسين في الجهادية، وهذا الشيء لا يساوي قبضة حسين.

تمتم المسخ الملقى على الأرض بملابسه العسكرية الفضفاضة:

عندما وزنت آخر مرة كنت سبعة وعشرين كيلو!

صرخت (خضرة) بصوتها (الحياني)، وانكفأت على الوجه الذي نتأت عظامه، رفعته إلى صدرها كالطفل، مررت أناملها على شفتيه المتشققتين وعينيه السياميتين.

"لا ترهقوا أنفسكم بالذهاب إلى الأطباء، هم لا يعرفون علاجه"

قال رجل ببزة عسكرية لم يكن قد انتبهوا إليه.

"لقد فحصه كل أطباء الجهادية، ولم يجدوا له علة، قال لهم بعض أعراب الصحراء:إن علاجه عند الشيوخ".

قال الشيخ عفيفي: وأنا أعرف شيخة في (الخطارة).

هات الحمير يا عوف.

هاتي لي العمة يا خضرة.

فصلت الحمير قبل الظهر، كان عوف على حماره، وحسين أمامه كأنه ولده الذي يعلمه ركوب الحمير. علي مصرف بحر البقر رفع حسين رأسه تجاه وجه عوف الذي قال: و هل ستعرف تلك الشيخة ما لم يعرفه الحكماء؟ أغلب ظني أنها دجالة.

سحب عوف حبل (الصال)، وحمل حسين على يديه ناظرَاً إليه بعين، والأخرى تشرد بعيدًا، حيث رأى حسين أمامه منتصباَ كالنخلة الحياني، يزمجر كالثور، الناس يهرعون تجاه الترعة، أسرع معهم، وعندما وصل تجمع الناس، كان العربي واضعًا يديه بين كفيه ويبكي، الجمل في قلب الترعة فارد رقبته على صفحة الماء، يطلب الحلال.

جاء حسين طائرَاً من بعيد، قدماه لا تتركانِ أثرَاً على الأرض. قفز إلى الترعة، وأوعز لعوف أن يمسك الحبل.

"شد الحبل يا عوف سنتأخر"

جذب عوف حبل (الصال) بشدة، فشق مياه بحر البقر.

"أريد أربعة رجال"، قال حسين وهو في الترعة، نزل أربعة رجال على الفور.

جلس الرجال تحت إليته بينما كانت يداه تدفعان الجمل، وصوته يهدر من الترعة "شد الحبل يا عوف"، و في ثوانٍ كان الجمل على الجسر.

لا أستطيع أن أتصور أن هذا العملاق يتقزم بمثل تلك الصورة.

" شد الحبل يا عوف؛ سنتأخر "، زمجر ثانية الشيخ عفيفي بينما لا تزال عينا عوف شاردتين بعيدًا، في حين كانت يداه تجذبان حبل الصال بشدة.

و لما وصلوا عرفتهم من ريحهم، قائلة: لقد تأخرت كثيراً يا حسين؛ كنت أشم ريحك منذ خرجتم.

حمله عوف مرتعدًا، ووضعه برفق أمامها.

- أما أنت يا عوف فلا تَخُضْ في أحد قبل أن تراه.

أرتعد عوف خوفًا، حتى بال في جلبابه؛ كأنه ندم على ما قاله عند (الصال).

- ما دائي.

- سترى.

لم تنتظر المرأة أحدًا يحكي لها الأمر.

- العمل في بطنك منذ خمس سنوات، وضعته امرأة كأمك، كانت تريد أن تزوجك ابنتها، سأحضر لك شيئًا تشربه.

خرجت المرأة، وعادت بكوب من اللبن، تمتمت على حافة الكوب ثم قالت: اشرب.

شرب حسين، ظل يسعل بشدة، ثم انطلق من فمه بيض مقليّ!

- لم آكل البيض المقلي منذ زمن بعيد.

في الناحية الأخرى من بحر البقر كان الهواء أكثر دفئًا،أدفَأتْهُ دور الصوالح بأفرانها و أنفاس أطفالها و نسائها الذين ينتظرون حسين، بينما كان عوف يتحسس جلبابه الجاف.

سيدنا

86

لا أحمل إلا لوحًا معدنيًا في كيس قماش صنعته أمي بحزام؛كي أعلقه في كتفي. عندما رأيت الأطفال مسرعين نحونا بعيون حمراء وأوجه مصفرة قالوا: " مفيش كتّاب النهاردة؛ سيدنا تعبان".

استعرت فرحة مؤقتة من على وجه صديقي، وانصرفنا جهة الجرن نلعب، تذكرت وجه الشيخ بقسماته الصارمة حينًا والحانية أحيانًا، تذكرته يضحك ويربت على كتفي، و أنا أرى أسنانه البيضاء وشفتيه تهمسان برفق "شاطر".

شممت ريحه وهو يجول ببالي بعصاه الخيزران يجرى خلف الصبية كثيري الضجيج.

حطت عصافير خضر كثيرة على أشجار (الكازورينا) أمام بيته.

شممت ريحه أعمق في رئتي، ثم استدرت فجأة علي صوت أطفال ينتحبون.

الرؤيا

منذ أزمنة غابرة، عهود سحيقة، عصور بعيدة، ساحقة البعد، حين لم يكن قد تكون شيء، منذ فترة لم ولن يعرف العقل مداها، فترة زمنية غير خاضعة للقياس *: لم يكن هناك في الكون إلا رائحة واحدة / الطين / حيث كانت الدنيا عمياء؛أي: عندما كانت الأشياء سوادًا مطلقًا كالعمى. لقد أخطأت وربما كذبت ونقضت عهدي؛لأنني قلت "سواد كالعمى"، وهو نفسه الخطأ الذي وقع فيه شكسبير عندما قال كالسواد الذي يراه العميان؛ بالتأكيد هو الآخر لا يقصد؛ فالعمى ليس أسود مطلقًا، كذلك قال بورخيس (الأعمى)؛ فهو بالتأكيد أعلم، المهم أنه عندما كانت الأشياء سوادًا والسلام، جلس الليل وحيدًا - حيث يسكن الموت- ولم يجد من ينافسه، فافترش الأرض، وأمسك فوق رأسه ملاءة طائرة تناثرت في أنحائها حبات متلألئة يسمونها النجوم.

بعد ذلك بلمحتين -تقريبًا- قبض العجوز القابع أسفل برجي الحمام بلونهما الجيري المنطفئ، والمرتفعين كأفخاذ للسماء على جلبابه الذي يطل منه رأس أرنب أبيض كبير...

(أعلم أنه يمكن لواحد من أولئك الذين يظنون أنفسهم أذكياء أن يقول إني أخطأت؛لأنني قلت منذ قليل "... لم يكن قد تكون شيء"، فمن أين أتت كل هذه الأشياء ؛ الرجل،برجا الحمام، الأرنب؟

أقول لهذا الناصح إن وجود هذه الأشياء وجود هولي، أو لا وجود؛أي:الرجل ليس رجلاً، و برجا الحمام غير حقيقيين، والأرنب ليس أرنبا).

المهم أن هذا الرجل ظل مدثرًا ببرودة لذيذة تفت في العظام العجوز، وربما كان كل الآتي هو إشارة سبابته المنحنية إلى السنين القادمة التي تقترب منه شيئًا فشيئًا، و هو ينظر مترقبا إلي قطاعاتها الطولية و العرضية، و كانت نشوته -عندما صافحته الأرض من حوله برائحة الفحم والكربون والأزوت- ممتزجة برائحة الطين اللازب! ....

بؤر من الضوء الباهت تومض في قلب الصمت والظلام ...

تتسع فتبهت أكثر فأكثر ....

تتبعثر رائحة الطين كالفضيحة.

بالتأكيد لم يكن حنينًا إلى الأصل، ولا رغبة في العزلة أو التنزه.

و لكنها الابتسامة التي شَهَرَهَا في وجه الليل، فانبلج النهار مع أسنانه الفضية، ولما ظهرت أسنانه المذهبة ظهرت الشمس محنية مؤدبة، ومن يومها اعتاد النهار أن يسحب الشمس (ابنته)في يده.

ظلت الشمس على عهدها مع أبيها، ولم تسبقه قطُّ، أو علي الأقل حتى تلك اللحظة.

جاء سنا الشمس من الجهة الشرقية منفلتًا من بين فروع أشجار السنط والكافور التي تجرى عليها فروع العنب الثعبانية، والتي تتدلى منها عناقيد الذهب تضيء صفحة الماء.

لا حمامة واحدة تخترق تلك الثقوب (العيون) السوداء التي تبص علي الدنيا، ولا حتى تقف على تلك الأذرع الخشبية المزروعة على السطح والمشرَعة كأشواك القنفذ.

الغريب أنه ظل يابسًا كالحطب ، يضحك كصورة، ولم يعلق على شيء، ولا حتى على تلك الوجوه التي تنظر إليه وتختفي؛ فقط:اكتفى بأن واصل ابتسامته، ثم تنفس بعمق؛كي تتخلل رائحة الطين إلى أقاصي رئتيه القديمتين.

هكذا ولد جدي.

- مقدمة الأساطير

نوار البرتقال

توقظني رائحة نوار البرتقال عند الفجر، أجري حافيًا تعانق قدماي براءة الأرض المنداة؛كي أوقظ جدي الذي أجده يتوضأ من ماء الترعة، يسحب غطاء رأسه الصوفي بيد، بينما الأخرى تمرر ماء الوضوء على شعره الرمادي الخفيف، و شفتاه تتمتمان بكلمات لا أعرفها.

-جد يا جد عايزك تشيلني ألمس البرتقالة اللي لسه مولودة.

تملأ ضحكته وجه الصبح، وبحركة معتادة يحملني بيد واحدة خلف ظهره، فأتشبث برقبته، وتعانق رجلايَ ظهرهُ الذي لم يزل مفرودًا كالنخلة .

- (آآآآآآآآآآآآآآآآآآه).

تمسك أصابعُ يد الجد تحتيَ الصغيرَ،وعيني نحو الثمرة الطفلة في أعلى الشجرة، أقترب أكثر، فأكثر، فتنتفض الأنف و الرئتان برائحة النوار تفوح منه بقايا ندى الصبح.

- لا تقطفها، وأعدك: أن أحملك لتلمسها كل صباح، ثم لتقطفها حين تنضج و تصبح صفراء.

- (آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه).

(ينز الدم من لحم الكتف وصفحة الظهر، يسيل دافئًا على الفخذين والسمانتين الباردتين، ويتجمع أسفل القدمين المسمرتين).

أمد يدى لألمس البرتقالة، لا أستطيع.

(يقفز أمامي الضفدع قبل أن أسمّرهُ علي خشبة التشريح في أول (سيكشن) بالجامعة)

(آاااااااااااااااااااااااه).

- هل نضجت البرتقالة يا جدي ؟

- ألست الذي يلمسها كل يوم؟

- أصفرت و أريد قطفها

رفعتني يد الجد، تمتد يدي نحو البرتقالة، عيني مسمرة نحوها كالشمس صامتة الضوء في طبق السماء الأزرق الكبير، وجع يأتي من كل مكان، الحيطان تقترب أكثر .. أكثر، وتضيق الغرفة حتى تضغط الحيطان على كل الجسد الهامد، رائحة الدم جلية ممزوجة برائحة نوار البرتقال.

- (آااااااااااااااااااااااااااااااااااه).

الزفة

رأيته اليوم في الضحى عائدًا من سوق الثلاثاء، سمعته يقول متباهيًا أمام رجال الشارع:إنه أشتراه باثنتين وعشرين مئة.

وقف بجواره، وشّحه بعقال أحمر زاه وقطعة من القماش الأبيض النمور، وضعها على ظهره، ربت على عنقه صائحًا في الصبية الصغار...

توكلوا على الله!

أمسك أخي بزمامه يحدونا، ونحن نطبع أقدامنا الحافية الصغيرة على كل شبر في القرية..

يقول أخي بصوته الجهوري:

الدبح النهاردة!

ونرد من خلفه بأصواتنا الرفيعة:

ياحمام

- حمام صغير

- يا حمام

- لحساب مين

- يا حمام

- هلال أبو سمعين

تتعلق عيون الناس بتلك الخرق الواسعة، وتلك الأقدام التي علق بها روث البهائم في الطرق و المنحنيات الثعبانية.

عند انحناء وسط البلد قابلتنا مسيرة أخرى، كان " العريس" يقبض علي يد "العروسة"، والناس تزفهم في عكس اتجاهنا.

سار مضطرباً، كنت أنظر إلى عينيه الزائغتين بين الفينة والفينة، أراهما وقد امتزج فيهما الخوف والاستغراب.

نجح الغروب في ابتلاع الشمس المرهقة مع وصولنا أمام دار خالي هلال، خرج، وقف على المصطبة الطينية، أمسك بكتف أخي، وسأله بهدوء:

العيال نادوا كويس؟

- آه والله!

رفع رأسه مبتسمًا، فض الكيس بيده فضة سمعنا صوتها يرن في أرجاء الجرن؛ ذلك الصوت الذي كنا ننتظره من أول خروجنا عند الزوال وعودتنا عند المغرب، أغمد يده في الكيس، ظل ينثر علينا حبات الحلوى ضاحكًا ونحن نتسابق في جمعها.

بعد انصراف الصبية، جاءت خالتي "ريا" معها القنديل، أمسكته بجواره، كان خالي هلال قابضًا على السكين الطويل، أراحه على جانبه الأيمن، سمعته يتمتم، ورأيته يضغط على ضروسه، وبشجاعة أسكن النصل في رقبته!

سمعت خواره.. غمغماته.. همهماته كانت تقع مني، فتبعث تأوهًا من الأعماق، أحسست بحشرجاته تسكن حلقي، والهواء يتضاءل في رئتي، فأرتعش وكأنني محموم.

انفجر بركانُ الدَّمِ، تعالت زغاريد خالتي التي خضبت كفيها بالدماء القانية، وراحت تطبع أصابعها الخمس على جدران الدار؛ منعًا لعيون الحاسدين.

عدت لأتمدد بجوار أخي، تذكرت الوشاح، الصبية، الحلوى، النصل اللامع، ثم عدت أسأل نفسي:

هل كان يعلم أنه سيذبح بعد زفته ؟!

خجل

ما بينا:

طريق ....

وأشجار(فيكس) ....

وأناس كثيرون ....

وأنا قد اعتدت الجلوس في الناحية الثانية، تأتين في التاسعة إلا الربع، تشقين ضباب الصبح الرضيع، تدخلين (الكافيتريا)، تخرجين ومعك كوب الشاي المعتاد، تجلسين على الجانب الآخر، تضعين كشكول المحاضرات بجوارك وعليه حقيبة يدك البنية، تدورين كوب الشاي بين يديك، تتنفسين فيخرج بخار الماء من فمك الصموت،في التاسعة إلا خمس: تنظرين في الساعة، تتعلق عيناك ببوابة الكلية، وعندما تفتح، تجثو على شفتيك نصف ابتسامة هادئة، تضعين الكوب الفارغ بجوار المقعد الأسمنتي،تحملين الحقيبة وتحتضنين الكشكول.

كم من الوقت قد مضى وأنت لم تتغيري؟

فلماذا تأخرت الآن ؟؟؟

الساعة: التاسعة تماماً.

اثنا عشر سنتيمتراً

اثنا عشر سنتيمتراَ هي الكون كله، ووقوفي مفروداً مرة واحدة على كتف أحدكم أشبه بالسفر إلى الفضاء! اثنا عشر سنتيمتراَ هي ارتفاع رأسي المطروح على الأرض.. أية أرض! ناعمة، خشنة؟ لا يهم! أشعر في كل مرة أن رأسي كبير وثقيل جدًا بحجم قبّة مسجد.. كل شيء يبدو كبيراً للغاية، حتى مَنْ هم أصغر مني عمراً! أراهم عماليق .. لا تهمني الأبعاد، لا طول ولا عرض، أعرف بصمة أقدامكم حتى صرت أحدد القادم منكم على بعد ميل. أنتم عادة لا تهتمون بي، فقط: تطرحونني أرضًا وتذهبون، تركضون، تركلون الكرة، وأنا أناضل كي أرى الدنيا كما ترونها مرة واحدة، كبرت، وازداد طولي كثيراً.. حرمت من سماع دقات قلب أمي ا لتي أدمَنْتُهَا والتي أعرف منها كل ما يدور في بالها؛ كل يوم تفاوض أمي الرجل الذي يحملني ليصعد أو يهبط بي سلم عيادة العلاج الطبيعي.. لو كنت أستطيع المشي، لفعلت أشياء كثيرة .. كثيرة جدًا؛ لفعلت كل شيء، و ربما وفرت كل المال الذي يأخذه الرجل واشتريت به حلوى.

لدقيقة أو دقيقتين وأنا مطروح -أيضًا- على كتف الغريب أرى الدنيا نائمة على جنبها أو ربما بالنسبة لي، أشعر أنني كبير جدًا، تتلاشى الصور القديمة للصغار الذين يكبرون فجأة حين أطرح أرضًا، وهاأنذا أراهم أصغر كثيراً، أتفادى الشمس التي تعلن التحدي، وتحملقُ في عيني، و أنا غير قادر على هزيمتها حتى بنظارة شمسية.. أنتم لا تفهمون شيئًا؛ حتى أنكم لا تعرفون أني أكبر.. أكبر... تمر من على وجهي النساء بجلابيبهن الواسعة ولا ينتبهون للعين الذكرية التي تغوص فيهن من أسفل الملابس! أنا

رجل! أحب النساء مثلكم وربما أكثر! تحسبون العمر بالوقوف! تظنون أنى سأظل طفلًا حتى و لو بعد ألف عام، أفهم كل ما تقولون منذ زمان بعيد (عنده ضمور في المخ/ يحتاج لعلاج طبيعي)، حتى ملاطفة الطبيب للممرضة التي بجواره أفهمها، أحفظها كلها عن ظهر قلب، مناوشات الإخوة الصغار، شجار أبناء العم، رائحة الزهر في الحديقة المنزلية، رائحة المطر، رحيل الأقارب، نتيجة مباريات كرة القدم، أسمعكم تختلفون عما إذا كنت أفهم ما تقولون أم لا حين أتبسم من حكاية أو أفكر في أحاجي جدتي ؛ كلكم لا تفهمون و أنا الوحيد الذي أعاني.

سيرة ذاتية

الاسم : علي محمد محمد الصادق

تاريخ الميلاد : 1984/9/15

العنوان : قرية الصوالح ، مركز فاقوس ، محافظة الشرقية ، جمهورية مصر العربية .

البريد الإليكتروني : mrkingelsadek@yahoo.com

المؤهل الدراسي : حاصل على ليسانس الآداب و التربية قسم اللغة الإنجليزية جامعة الزقازيق 2005 .

يعمل معلما للغة الإنجليزية .

نشر له بعض الأعمال في الصحف المصرية المحلية .

ترجم لبعض الكتاب العالميين

مثل ت.س. إليوت (*The Love Song of J. Alfred Prufrock.*) شعر

و توماس هاردي (To please his wife) قصة

محمول / 01009835359

شقوق الذاكرة

علي الصادق

بعيني رأيتها ذات مرة و الأطفال يلعبون بها،
كانوا يكسرون في أصابع يديها و يضحكون،
قلت لها بعد أن طـردت العيـال: يا جدتي
ماذا تريدين؟
قالت: أريـــد أن أمــوت.



شقـوق برائحـة الأرض الطيبة.
يتدفق الريف في أغلب صفحـات المجموعة، تشم رائحتـه، تتعايش مع تفاصيله... دمج بين اللغة الريفية و التشكيل الحديث يمثل دمجا بين الشرق و الغرب، بين فطرة الكاتب وثقافته الفنية... استدعاء للرمز و استلهام للأسطورة .... هذه هي المجموعة القصصية الأولى للكاتب لكنها تحمل خبرة ملحوظة ووعيا فنيا راقياً...

دكتور/ تامر عطية
روائي و شاعر

تصميم الغلاف: مصطفى عبد الرازق

